بخيت الشحري:
حارس الذاكرة الفنية

«لماذا رفضتَ أن تقف معنا ونحن أصحاب حق؟، هل غيّرت مبادئك أم أنهم اشتروك؟!».
قالها بخيت مازحًا على طريقة «مزاح وضرب سلاح». قلتُ له: «كلِّ شيء له أوان، فإن لم تفعله في أوانه فالأفضل ألا تفعله أبدًا».

زاهر بن حارث المحروقي

يحق لبخيت بن أحمد الشحري، هذا الفنان البشوش الذي لا يُسلِّم على أيِّ زميل له إلا بالقبلات أن يعاتبني. ويحق لي أن أتقبل عتابه ومزاحه بصدر رحب. يرى بخيت أنني تخليتُ عن مناصرته في قضية مساكن موظفي وزارة الإعلام؛ وهي قضية كبيرة وصلت إلى المحاكم ولم يكسبها السكان، وتتلخص في أنّ ساكني مساكن الوزارة في القرم، لديهم ما يثبت أنّ أوامر سلطانية صدرت بتمليكهم تلك المساكن بحكم طول المدة التي قضوها فيها، إلا أنّ الجهات الرسمية لم تمتثل لهذه الأوامر، فطلب مني بخيت – باسم زملائه القاطنين في تلك المساكن – أن أكتب مقالاً أشرح فيه القضية، لعل الرسالة تصل إلى المسؤولين فيغيِّروا رأيهم؛ وفي حقيقة الأمر لم أكن ممانعًا أن أكتب فيما لو أعطاني بخيت نسخة مصورة من هذه الأوامر المكتوبة، ففي النهاية فإنّ كتابة مقال عن موضوع شائك كهذا تفرض على الكاتب أن يكون مالكًا للدليل، فأنا أعرف أنّ بخيت وزملاءه صادقون في ادعائهم هذا. لكن بخيتاً تلكأ في تسليمي ما طلبتُ في وقت كانت عُمان تمر بأحداث مفصلية يمكن أن يكون مقالي فيها مفيدًا لبخيت وزملائه، وكنتُ متحمسًا لكتابة هذا المقال. وعندما سلمني ملفًا كاملًا عن القضية كانت الأحداث قد بردت وحماستي للكتابة قد فترت. لقد وصل إليّ بعد فوات الأوان، وكان ينطبق عليه وقتها المثل العُماني: «يوم خلص العرس، جا الشايب يرقص».

لكن هذا يظلّ حدثًا عابرًا في علاقتي ببخيت الشحري، هذه العلاقة الممتدة منذ عام ١٩٨٣، عندما تعيّن في وزارة الإعلام ضمن فرقة موسيقى الوزارة، والتي تمَّ حلُّها بعد ذلك وتحويلُ موسيقييِّها إلى موظفين في أقسام الوزارة المختلفة؛ منهم من كان نصيبه التلفزيون، ومنهم «كبخيت» من كان نصيبه الإذاعة، قبل أن يصبح ولسنين عديدة رئيس قسم الموسيقى والغناء، وهي الوظيفة التي ما زال يشغلها إلى اليوم. هذا الرجل الودود القادم من صلالة، الذي يتحدث بلا تكلّف وبأريحية آسرة كان يملك ميزة إذابة الجليد مع محدثيه من اللقاءات الأولى. لذا أصبح صديقَ الكثيرين من الزملاء، لدرجة أنّ بيته في مدينة الإعلام كان ملتقى للكلِّ؛ وفي ذلك العام – أي ١٩٨٣ – وكانت موهبته التلحينية

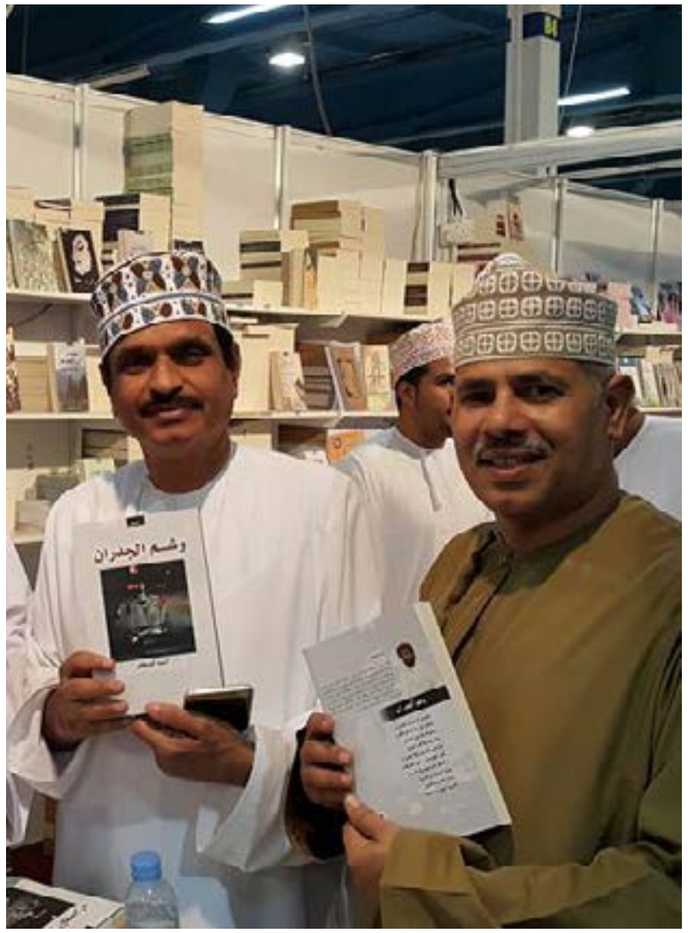

قد بدأت تخطو خطواتها الأولى بثقة، قرأ بخيت قصيدة في جريدة تحت عنوان «نهر الذكريات» للشاعر مبارك العامري، فأعجبته القصيدة، وعندما عرف أنّ بيني وبين مبارك صداقة ومودة، طلب مني أن أستأذنه في تلحين القصيدة وغنائها؛ وفعلًا تواصلت مع مبارك وأذن بذلك، وكنتُ أزور بخيتاً في بيته في مدينة الإعلام وأستمع إلى محاولاته التلحينية الأولى، أنا وصديقي إبراهيم بن سليمان الوهيبي، ثم شارَكْنا في تلك السهرات فيما بعد، الصديق علي بن مبارك الفارسي، وهو أحد الشعراء الذين كتبوا لبخيت بعض الأغنيات؛ أي إنني أستطيع القول إنني شاهدتُ بدايات بخيت الأولى في التلحين، وقد لحن أغنية «نهر الذكريات» وغنّاها بصوته بالعود أولاً، وعندما ذهب للدراسة في القاهرة غنّاها من جديد ولكن بإيقاع أسرع، ممّا أفقدَ الأغنية في رأيي بعض جمالياتها، وعندما سألته لماذا تغيّر لحن الأغنية؟، أجاب أنّ الفنان عبد الرب إدريس عندما حضر إلى القاهرة ليناقش رسالة الدكتوراة، عدّل في اللحن حتى تكون الإيقاعات أسرع، غير أنني مازلتُ أرى أنّ لحنها الأول كان أجمل بكثير.

لقد رافقني بخيت في العمل طوال السنوات التي كنت أقرأ فيها نشرات الأخبار، فهو من وضع – «مارشات» – ألحان الأخبار العالمية والمحلية التي كانت تبثّ عند بداية ونهاية كلِّ نشرة، منذ عام ٢٠٠٠ وحتى بدايات عام ٢٠١٦، عندما جرى الانتقال إلى الأستوديوهات الجديدة، وتدشين الهوية الجديدة للإذاعة والتلفزيون، فتوقف بث تلك الموسيقى التي وضعها بخيت والتي تم تسجيلها في استوديوهات عمّار الشريعي في القاهرة بقيادة الموسيقيِّ أمير عبد المجيد، الذي سيفوز بعد ذلك بسنوات بجائزة السلطان قابوس للفنون.

منذ ذلك اليوم البعيد في عام ١٩٨٣ وإلى اليوم ما زالت علاقتي المبنية على المودة والاحترام المتبادل مع بخيت مستمرة. وكان دائماً يردِّد لي أنني الوحيد في إذاعتنا الذي يقدِّر العمل الذي يقوم به، وهو تجميع الفنون العمانية من أجل الحفاظ عليها من الاندثار. اليوم (٢٣ يناير ٢٠١٧) قضيتُ ما يشبه دواماً كاملاً في مكتبه، حيث طاف بي في عالم الأغاني العمانية والفنون الشعبية المحكية والمغناة، وشاهدتُ خلال هذا اليوم الجهد الكبير الذي قام به بخيت في سبيل توثيق التراث الشعبي العماني، وهو – وللأمانة – جهدٌ شخصي جداً، ليس له علاقة بعمله كرئيس لقسم الموسيقى والغناء. وفي الواقع لا يمكن لمهتم بالفن وبالموروث الشعبي أن يدلف مكتب الفنان بخيت الشحري دون أن يتوقف مشدوهًا أمام ما يحويه من كنوز. وللمصادفة القدرية فقد شارك بخيتًا في هذا المكتب لسنوات، مهتمٌ آخر بالفنون العمانية وتوثيقها، ألا وهو الزميل الشاعر عيد بن حارب المشيفري الذي تقاعد من العمل مع بداية عام ٢٠١٧، بعد رحلة عطاء طويلة في المجال الإذاعي مُخلِّفاً وراءه في مكتبة الإذاعة مئات الحلقات من البرامج التي تناولت الفنون الشعبية وقصائد الشعراء الشعبيين. ومن يدخل إلى هذا المكتب يُخيَّل له للوهلة الأولى أنه دخل إلى استوديو

أو محل صيانة الأجهزة والأشرطة؛ ففي الطاولة التي يجلس أمامها بخيت هناك ثلاث شاشات حاسوب كبيرة وأجهزة الاستماع عن طريق «الريل» و «الكاسيت» و «الأقراص – سي دي»، وكذلك آلة تصوير، والكثير من الملفات. لقد كانت هذه الطاولة لسنوات حارسة للتراث العُماني.

كثيراً ما كتبتُ وتحدثتُ عن أهمية التوثيق – سمعيًا وبصريًا وورقيًا – ولكن للأسف فإنّ مسألة التوثيق هذه لم تأخذ حقها من الاهتمام لدى العُمانيين، مسؤولين كانوا أم مواطنين عاديين؛ غير أنّ الفنان بخيت بن أحمد الشحري كان من القلائل الذين اهتموا بالبحث والتوثيق، فبجهد شخصي قام بتجميع الفنون العمانية المحكيةً والمغناةً من مسندم إلى ظفار، عبر زيارات ميدانية قام بها على نفقته الخاصة لأشخاص لهم علاقة بالفنون الشعبية. وها هو يملك الآن في مكتبه بالإذاعة إرشيفًا متكاملًا من الأغاني والأهازيج العمانية، بهدف المحافظة عليها وتطويرها مستقبلًا – إذا سمحت الظروف–. وقد واجهته الكثير من المشاكل منها أنّ بعض التسجيلات التي حصل عليها من النّاس هي تسجيلاتٌ بدائيةٌ وتحتاج إلى عمل كبير، كما أنّ بعض المطربين الذين كانوا يغنّون في الماضي رفضوا التعاون معه بحجة أنّ الإعلام لم يسأل عنهم طوال الأربعين عاماً الماضية، ولكنه مع ذلك استطاع أن يجمع حتى الآن، كما يقول، أكثر من ألفَيْ فنٍّ من تلك الفنون والتراث الموسيقي، ويضم إرشيفه عددًا كبيرًا من الفنون الشعبية المختلفة، منها الفنون المغناة، ومنها الحكايات التراثية الحرفية، وكذلك ومعزوفات على آلتَيْ العود والمزمار.

وعندما يتحدّث بخيت عن تلك الفنون فإنه يتحدّث بحرارة، لأنه يعرف قيمتها حاضرًا ومستقبلًا، فهو منذ نعومة أصابعه التي تعزف كان يهتم بالتراث الشعبي، وكان يجوب الأسواق الشعبية ويسأل عن الأغاني العمانية القديمة، وما يزال حافظاً لها إلى يومنا هذا، ويرى أنّ رسالته هي أن يحفظ للجيل القادم تلك الفنون الجميلة، كي لا تندثر وتختفي؛ ويؤكد بخيت في حديث لجريدة عُمان نشرته في ١٤ يناير ٢٠١٧، أنّ مصادر التراث الموسيقي متعددة في عُمان، لكنها تحتاج فقط إلى الاجتهاد في التنقيب عنها سواء من الأفراد أو الحكومة، لأنّ مسؤولية الحفاظ على هذه الفنون تقع على عاتق الجميع، وهي فنون ما زالت حاضرة عند كبار السن، «وإن لم

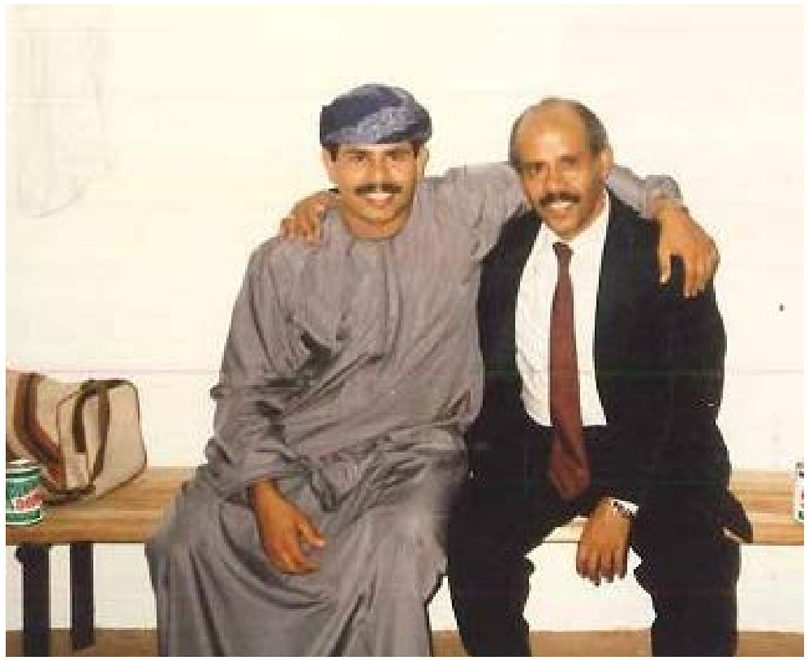

مع الفنان اليمني ايوب طارش واحمد فتحي

مع أحمد الحارثي خلال بدايتهما الفنية في القاهرة

نحاول التوصل إليهم مبكراً فقد تختفي معهم الكثير من المعلومات التراثية الغنائية، سواء كانت حكايات شعبية أو ما يتعلق بالفنون». وفي حواره هذا دعا بخيت إلى إنشاء هيئة رسمية متخصصة في بحث وجمع وتصنيف الفنون العمانية بكلِّ أشكالها الغنائية، مع استمرار البحث من ولاية إلى أخرى على مدى العام، مشددًا على ضرورة عدم التهاون مع أيِّ شخص يخالف القانون ببيع تراثه لجهة أخرى أيّاً كانت، ليتسنى حفظ البيانات وحقوق كلِّ فنان عماني من السرقة والاقتباس. وما يراه بخيت هو رأيٌ له اعتباره إلا أنه لا بد من الإشارة أنّه إذا كانت المحافظة على ذلك التراث وتلك الفنون واجبة، فإنه لا يكفي أن نحفظها في الأشرطة والملفات فقط، ففي حالة كهذه فإنّ وجودها وعدمها سيان، تمامًا كما هي المخطوطات التي تظلُّ حبيسة الأدراج؛ ويكفي الآن أن نعرف أنّ الكثير من الأغنيات الناجحة التي لحّنها ملحّنون خليجيون هي في الأصل من التراث العماني، دون الإشارة إليه.

والهروبُ من المسؤولية الأخلاقية والقانونية سهلٌ جداً، لأنّ من يسطو على تلك الفنون والأغاني والألحان يلجأ إلى عبارة سحرية تبعده عن المساءلة القانونية عند تقديم أيِّ لحن من الألحان، ألا وهي عبارة «من التراث». وهناك نقطة لها مغزاها الكبير، فقد أخبرتني الزميلة زينة بنت سيف الحارثية أكثر من مرة، وهي موظفة في قسم التسجيلات التابعة للمكتبة الفنية الإذاعية منذ عام ١٩٧٦، أنّ وفدًا من دولة مجاورة زار عُمان، فقامت هي بطلب من المسؤولين بنسخ كلِّ ما كان موجودًا في مكتبة الإذاعة وقتها من الفنون والأغاني والأهازيج لإهدائه لهذا الوفد، ولكنّ الأمر المؤلم هو أننا قمنا نحن – فيما بعد – بمسح تلك المواد كلّها من المكتبة. والسؤال الآن: هل نلوم أحدًا مّا «أيّاً كان» إذا نسب تلك الموروثات لنفسه؟!. إنّ هذه الفنون والموروثات الشعبية هي تعبيرٌ حيٌّ عن التجارب والخبرات التي عاشها الإنسان العماني في حله وترحاله. وإنّ أيَّ مهتم بالفنون والموسيقى يعرف جيدًا أنه متى ما تم تطوير تلك الفنون والألحان والأهازيج بإعادة تلحينها وتوزيعها من جديد بشكل جميل يتماشى مع العصر وبأرقى الآلات الموسيقية، فإنّ ذلك من شأنه أن يجعل الأغنية العمانية في الصدارة، وقد أشار إلى هذا المعنى الفنان الكبير أبو بكر سالم في حديث أجراه معه الزميل الراحل عبد الله بن سليمان الزدجالي في برنامج «البث المباشر» في الثمانينيات. وفي الواقع فإنّ الزميل الفنان بخيت الشحري قد أعاد تطوير أكثر من ٤٥ أغنية شعبية خلال السنوات الأخيرة، فكان بمثابة حارس لذاكرتنا الفنية، ومع ذلك فإننا نطمح أن يُكلل جهد بخيت هذا بأن تعهد هذه الأغاني إلى فرق موسيقية كبيرة.

إنّ ما بذله بخيت الشحري من جهد للحفاظ على الفنون العُمانية لا يضاهيه إلا جهد آخر للزميل صالح بن هلال العبيداني رئيس قسم الأرشيف بدائرة الأخبار، فقد بذل هذا الأخير بدوره جهدًا كبيرًا للحفاظ على الأخبار التي بثتها الإذاعة منذ السبعينيات وحتى الآن.